



« مباحث عربية » ، فردّ آدم في الأعداد ٣١٧ و ٣٢٦ و ٣٢٨ .  
و كنت أنا وغيري نرغب كيف يحاول آدم التنصّل مما ألصقته به ،  
فأخفت الرقابة .

كنت قد كتبت إن آدم « يخلق القول » . إذ يقول :  
« يعتبر الباحث ( يعني ) كلمة البصيرة مقابلاً ( يريد : ناظرة إلى )  
intuition في ص ٥٧ من مباحث عربية » . وزدت أنه من  
الغريب أني لم أثبت كلمة intuition إزاء كلمة البصيرة في الصفحة  
المذكورة وقد أطلعت صاحب « الرسالة » ورئيس تحرير المقتطف  
على ذلك ، فن أبن جاء آدم بالكلمة الفرنسية ، وكيف جعلني  
« أعتبر » ما يجهل هل أنا « معتبره » ؟

ثم كنت كتبت أن آدم « يرتجل المصادر » ودليلي أنه  
استشهد بالإصحاح الرابع عشر من « سفر دانيال » من العهد القديم  
للكتاب المقدس ، على حين أن « سفر دانيال » كله اثنا عشر  
إصحاحاً فقط . فبينت كيف اقتبس آدم ذلك المرجع الوهمي من  
كتاب « ملحق اللغتين » لمراد فرج ، وكيف سقط هذا المرجع  
هناك من باب الغلط الطبقي — إذ الصواب الإصحاح الرابع —  
فسطا عليه آدم من غير تحقيق ولا روية . ثم إنني أتيت بدليل  
آخر يحمله أن آدم استشهد ، عند الكلام على أنساب العرب ،  
بالجزء الثالث من « الفهرست » لابن النديم وعين الصفحة ١٨٧  
فبعد أن نفيت احتمال غلط الطبع بينت أن « الفهرست » لم يخرج  
إلا في جزء واحد ، وأن الصفحة التي عينها الرجل لا أثر فيها  
لما استشهد به . وكان آدم قد أسند نص الاستشهاد إلى ابن حزم ،  
فسألته من ابن حزم هذا وما كتابه ، ولابن حزم الشهور سنة  
وثلاثون مؤلفاً ؟ فاستخارت من هذا كله أن آدم اقتبس المرجع  
إلى « الفهرست » من كتاب من الكتب الحديثة من غير أن  
يراجع المظنة ، دأبه مع « سفر دانيال » . هذا وأخبرني من هو  
أرسخ مني في العلم قدماً بأن ما استشهد به آدم إنما هو وارد في الجزء  
الثالث من كتاب « بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب »  
للألومي . فانظر كيف يكون الاضطراب في تناول المراجع .

## لا بد مما ليس منه بد حول كتاب بقلم الدكتور بشر فارس

قال لي ناس — وأهل الفطنة كثير — رأيناك تشهر القلم  
في وجه بعضهم إرادة الذود عن حيي العليم ، إذ قلت ( الرسالة  
٣١٤ ) : « إن العلم في مصر أمسي شيئاً مقدساً له سدّنته وله  
حرّاسه ، فكيف يأخذنا القول بالظن والكلام المتحدّي والجدال  
المحكّم والتظاهر بالثبوت والدراية » . ونصحت لمن عن له التطاول  
أن يطيل الروية ، وبصّرتّه عواقب أمره « إذا هو أقبل  
على الاشتغال بالعلم أو على نقد من توفّر عليه ، لأن النقد لا ثمرة  
فيه إذا حاد عن خدمة العلم وحده » . وهذا الناقد بنفضه كلامك  
فيكتب مقالاً وثانياً وثالثاً ، وأنت معرض عنه وقد قلت كنتك  
فسارت . فاعلم أن في عنقك أن تكشف عما يجب الكشف عنه  
ما دام المتستر بنفض فتزلق المناظرة على يديه إلى مباحة .

قال لي ناس ... قلت : شهرت القلم من قبل للسبب الذي  
تعرفونه ، فلما رأيت الرجل يلوي قلمه ويكابر ، قلت في نفسي :  
هذا الوادي لا أنزل فيه ولا قبيل لقلمي بالرتب في منحرفاته .  
إن إسماعيل آدم تخرج في جامعة موسكو سنة ١٩٣٣ على قول  
مجلة الحديث ( حلب ١٩٣٨ ) ، وأنا في غير هذه الجامعة تخرجت ؛  
وقد لقنني من أدبي أن أترجم طريق الحق كيفما دار وحيثما انقطع  
ولا أدري كيف يكون التلقين في جامعة موسكو . قلم إن المناظرة  
انزلت على يد الخصم إلى مباحة ، فحسبي اليوم أن أدون ما يؤيد قولكم

\*\*\*

قلت كلمتي في « الرسالة » (١) بعد نقد آدم الأول لكتاب

(١) صحح فيها من ١٣٨٢ س ١٦٩ : الفصل الثالث من الباب الأول ، بدلا  
من : الفصل الأول من الباب الثالث — وارجع أيضا ردي في مقتطف أغسطس

بمث إلى رسالة ( اطلع عليها صاحب مجلة الرسالة ورئيس تحرير المقتطف ) يقول فيها إنه لم يك يعلم شيئاً عن أولئك المسلمين ؟

— وأما مغالطة آدم ، فقد ينتها من قبل عند الكلام على ارتجاله لعنوان كتاب جعل اسمه أول الأمر « مجموعة محاضرات دركاييم عن علم الاجتماع في السوربون » ، حتى إذا ضيقت عليه السالك قال : ( الرسالة ٣١٧ وردى ٣٢٠ ) إن هذا الكتاب يحمل اسم « قواعد منهج علم الاجتماع » تحت عنوان شامل هو « أعمال السنة الاجتماعية » ( وهي مجلة دورية ) ، وقد حاول عبثاً أن يقحم كلمة « مجموعة » في هذين العنوانين . ثم إنه اعترف بمد ذلك أنه كان قد استند إلى ترجمة الكتاب بالإنجليزية . فكيف يناقشني — أول ما يناقشني — في الأصل الفرنسي ويعين صفحات منه ؟

— وأما تحدى آدم في القول فيدخل تحته ما بدا له أن يكتب في جانب اللغة . ووالله ما أدري ما القى استدراج الرجل إلى اقتحام النقد اللغوي ، وهو لا يزال يأخذ لفتنا عنا كما يقول ( الرسالة ٣١٣ ص ٣٣١ ) ، وهو يريد الاعتذار من اقتباس تعبيرات لي : « إنني حين أكتب بالمرية فأنا أكتب بلغة غير لغتي الأصلية ، ومن هنا بعض ما يجي على قلبي من التعابير الخاصة لكتاب اليوم استدراكاً للمنى الذي في ذهني » . هذا ولا شك عندي أن القارى لمس ارتباك أسلوب آدم وراكه عبارته واختلال مواقع ألفاظه ، وكثيراً ما قومت تعبيره ، وأنا أناظره حتى يفهمه القارى . وهيهات أن أجادل آدم فيما جاء به في نقده الثاني دفاعاً عن آرائه اللغوية الأولى . فقد نصحت له من قبل أن يقرأ النوع السابع والعشرين من « الزهر » للسيوطي حتى يتبين معنى « المترادف » ، ونصحت له فوق ذلك أن يراجع دواوين اللغة والمؤلفات الفلسفية في المرية والفرنسية جيماً لعله يعلم أن « الأخلاقيات » : ( éthique بمعنى morale ) شيء و « السلوك » ( moralité ) شيء آخر . ماذا أصنع وأنا لا أملك إلا النصيحة ؟

وحسبي اليوم أن أبرز للقارى جانبين من نقد آدم الثاني في باب اللغة ، قال آدم ( الرسالة ٣٢٦ ص ١٩٢٤ ) — وهو على كل قول قدير — « وليس جعلنا ( يعني نفسه ) لفظاً المتشابهة ناظرة إلى synonyme أفرنجياً بدليل ( أضف : على ) قصور في العلم باللغة . لأن التشابهة والتباينة ( كذا والله ! ) من الألفاظ التي تنظر إلى synonyme » ا ه . هذا وأنت تعلم أن لفظ

كثبت ذلك فأحجم آدم عن الدفاع ، أو قل أيا التسليم : أحياء أم مكابرة ؟ أما فقد آدم الثاني فما لا يلتفت إليه ؛ فيه عناد ومغالطة وتحدٍ وعود إلى اختلاق القول وتهويل وتقد عن هووى . والله يعلم أني لست ممن يمتبط الكلام ويرسل التهمة ؛ فرجى من القارى أن يلمس بعض الأدلة :

-- أما العناد ففي إصرار آدم على أن المسلمين الذين اعتدبت إليهم في فنلندة سنة ١٩٣٤ لم رحلوا إليها عقب الثورة البلشفية في روسية ، على حسب ما أثبتت نقلاً عن هؤلاء المسلمين أنفسهم واستناداً إلى بيان موظفي الحكومة الفنلندية . إن آدم يحملنا على أن نظن أن أولئك المسلمين من سلالة طائفة من الترك هبطوا فنلندة في « القرن السادس عشر للميلاد » ، وحقته هنا أن مدينة « توركو » الفنلندية تشق اسمها من هؤلاء الترك . فرددت على هذا قلت : إن مدينة « توركو » تصمد إلى المائة الرابعة عشرة ، واستشهدت فيما استشهدت به بدائرة المعارف البريطانية . ولكن آدم لم يدفع شهادة دائرة المعارف البريطانية — وأمل هذا السفر مما لا يعول عليه في جامعة موسكو — بل عاد إلى تشكيكه في تاريخ هجرة أولئك المسلمين ، وقام يستند إلى كتب ألفها علماء من روسية ليبرهن على أن جماعة من الترك رحلوا إلى فنلندة قبل الثورة البلشفية ، وأن أمرهم مشهور .

وحسبي اليوم أن أنقل هنا رسالة بعث بها إلى رأس المستشرقين في روسية ، وهو الأستاذ كراتشكوفسكى أستاذ المرية وآدابها في جامعة لنتجراد ( وهي غير جامعة موسكو ، كما يعرف آدم نفسه ) ومن أعضاء الأكاديمية الروسية فيها ، ( وقد اطلع صاحب مجلة « الرسالة » ورئيس تحرير المقتطف على تلك الرسالة ) ونصها :

« سيدى الأستاذ الفاضل ، سلاماً واحتراماً وشكراً على ما أنعمتم على به من رسالتكم اللطيفة عن أحوال المسلمين في فنلندا ، وقد قرأتها بكل إيمان ولذة في مجلة الدراسات الإسلامية ، ولكم الفضل في لفت أنظار العلماء إلى هذه الزاوية من العالم الإسلامى الحاضر . ا ه . وعلى هذا فقد شهد شاهد من أهله ، وأى شاهد ا

وهل نمة حاجة بعد ذلك إلى أن أخبرك بأن « مجلة الدراسات الإسلامية » التي يخرجهما المستشرق ماسينيون في باريس نشرت حديثي عن أولئك المسلمين على أنه « اكتشاف » ، نشرته بالفرنسية سنة ١٩٣٤ قيل أن أنقله إلى لغتنا في « مباحث عربية » ؟ أو إلى أن أخبرك بأن المستشرق جب Gibb من أساتذة جامعة أكسفورد

ما ذهبت إليه هنالك مع زيادة في سياقة النصوص وإضافة في عرضها؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله ! وحسبك موازنة ماجاء في كتابي الفرنسي ( ص ٣٠ - ٣٢ ) بما جاء في مباحث عبرية ( ص ٧٢ - ٧٤ ) وقد اطلع على ذلك صاحب مجلة الرسالة ورئيس تحرير المنقطف - وأما تهويل أدم فيدل عليه ما تقدم بك من أربحاله للمصادر، وإن قال من قبل متواضعا ( الرسالة ٣١١ ص ١٢٢٥ ) : « أظن أن الدكتور بشر فارس لا يتكر علينا أننا أكثر الكاتبيين في العربية استقصاء للمصادر ». ثم دعني أخبرك بأن أدم سلط قلبه ثانية على مبحثي في الروءة فاستغرق نقده ثلاث صفحات من الرسالة ( ٣٢٨ ) . ولما رأيت ذلك قلت في نفسي : لعل الناقد يدفع ما ذهبت إليه بتضعيف النصوص التي استخرجتها وهي تزيد على ثلاثمائة سواء تصرحاً أو تلميحاً ، أو لعل يسقط مبحثي بالظن في المراجع التي عولت عليها وهي تقارب المائة . ذلك ما يرقبه الناس من الناقد الثبت فيما أعلم . فاذا أصبت في تلك الصفحات الثلاث ؟ جاءني أدم - وحياتك - بنصوصي دون غيرها ، فخرهما عن مواضعها ، وقدم من سياقتها وأخر ، وحلها ما لا تحمل ثم استخلص من ذلك التشويش أي أبعد ما يكون عن البحث اللغوي البسيط . بالله ثم بالله لم يأت بنص من عنده ، ولو بنص واحد؟ وأظرف من هذا أنه أثبت مظان النصوص في نقده ناقلاً إليها من المراجع المثبتة في هوامش كتابي . ألا من يقول لي ما الذي يدعوه إلى أن يدون مثلاً : « كتاب الأردبيلي مخطوط في آيا سوفيا رقم ٢٠٤٩ وهو مخطوط في التصوف كما وصف ذلك الأستاذ تيشنر في مبحثه المتنون باسم ( هنا العنوان الألماني ) ، والمنشور بمجلة Der Islam التي تصدر عن هيرج مجلد ٢٤ ص ٥٨ » ، ما يدعوه إلى مثل هذا التعامل ، وكل مادونه مثبت في مباحث عبرية » ( ص ٥٩ المتن والحاشية ) ؟ وعلى هذا مادونه بشأن كتاب جولدتسيهر ، وكتاب المرض عند عرب الجاهلية ( راجع « مباحث ... » ص ٧٢ ، ٧٤ ) . وخير للأستاذ أدم أن يمدل عن التعامل بعد اليوم ، فلربما حفر حفرة وقع فيها . من ذلك الحفرة التي حفرها ، وهو يسطو « على ملتي اللتين » لمراد فرج ، ومن ذلك أيضاً قوله ( الرسالة ٣٢٨ ص ١٩٩٥ ) : « المعنى الحقيقي réelle » ، وباليته تنع بالسطو على التركيب العربي وحده ، ( وهو في « مباحث عبرية » ص ٦٠ ) إلا أن وسوسة التهويل غوته فزاد كلمة فرنسية réelle في صيغتها المؤنثة . فلم يؤثها في نقده وهي واردة فيه من غير موصوفها ؟ القصة أن أدم نسب الموصوف في طيات « مباحث عبرية » وهو définition

synonyme تفيد مفاد كلمة « المترادف » عندما . فبالله كيف تكون الألفاظ المتشابهة والمتباينة ناظرة مما إلى المترادفة ، وبين للتشابه والمتباين ما بين الأبيض والأسود ؟ - ثم قال أدم ( الرسالة ٣٢٦ ص ١٩٩٦ ) : « أما عن مجيء هذه الروايات ( الخاصة بالروءة ) من الجاهلية أو عدم مجيئها ، فلا يؤثر على ( يريد : في ) القضية في شيء ، لأن جلها أتى من صدر الإسلام ، والعربية لم تتغير ( يريد : تتغير ؛ قد والله شئت تهذيب أسلوب الرجل ) فلا معنى للاحتجاج بأنها ليست ( بمعنى الروايات ) من الجاهلية ، وإذن يبقى معنا لفظة الروءة نازعة منزح السيادة في الجاهلية وصدر الإسلام ، بعكس ما حاول أن يوه القاري بطرق ملتوية الدكتور بشر في مباحثه العربية » ا هـ . فهل للأستاذ الدكتور أدم أن يراجع في « الصحابي » لابن فارس باباً لطيفاً قريب المثال عنوانه « الأسباب الإسلامية » ليتبين له أن العربية اتفق لها أن « تتنار » كما يقول ، بانتقال أهلها من الجاهلية إلى الإسلام إذ « حالت أحوال ، وأبطلت أمور ، وتقلت من اللغة ألقاظ من مواضع إلى مواضع أخرى . فعني الآخر الأول » . ليراجع الأستاذ الدكتور أدم ذلك الباب ، فيه إليه حاجة ، وليطمئن إلى أن ابن فارس لا « يوه القاري » بطرق ملتوية « مثل بشر فارس - وأما عود أدم إلى اختلاق القول فقصته أن الرجل قال ( الرسالة ٣٢٨ ص ١٩٩٥ ) إلى ألفت رسالة بالفرنسية عنوانها « المرض عند عرب الجاهلية » وموضوعها أن أخلاق عرب الجاهلية تندرج تحت معنى المرض ، ثم زاد « ولما كان المستشرق جولدتسيهر Goldziher قد كتب فصلاً كاملاً عن الروءة ذهب فيه إلى أن الروءة كانت تنزل منزلة النضلية عند عرب الجاهلية . فقد اضطر الدكتور بشر أن يعود عام ( يريد : سنة ) ١٩٣٧ ليتناقش رأي جولدتسيهر فكتب مادة مروءة في تكملة دائرة المعارف الإسلامية ثم توسع بالمادة فكان منها موضوع مبحث الروءة من كتاب مباحث عبرية » ا هـ . والرد على هذا أن كتابي « المرض عند عرب الجاهلية » مطبوع ومتداول ، وهو موجود في مصر ، في دار الكتب مثلاً وعند نفر من علمائنا وكتابتنا . فن ذا الذي يقول إنني لم أناقش في هذا الكتاب - وهو الرسالة التي نلت بها شهادة الدكتوراه من السوربون - رأي جولدتسيهر ومن تلا نلوه من المستشرقين ؟ إنني لم أتحول في مبحثي الذي نشرته في دائرة المعارف الإسلامية الخارجية في هولندا ولا في مبحثي المدرج في مباحث عبرية عما جاء في كتاب المرض عند عرب الجاهلية . إن ما ذهبت إليه هنا هو

البحث ( غريب ، غريب ا ) والمآخذ التي أخذناها على أهميتها لا تتال من قيمة البحوث ولا من الجهد العلمي المبذول فيه .  
والواقع أن الدكتور بشر فارس شق الطريق للبحث العلمي الجدي ( العقول ا ) ولو لم يكن له غير هذا الجهد لكن ذلك التقدير .  
إسماعيل أحمد آدم « ( الرسالة ٣١٢ ص ١٢٧٥ )

إن السر في هذه الردة أني آدم كتب نقده الثاني وهو ناقم حائق ، لأن بينت في المقطع ( أغسطس ) والرسالة ( ٣١٤ ) كيف يجتلب النقد اجتلاباً ويربجل المصادر ويتحدى في القول ويتعلم فيزاق إلى الاعتراف والغمز . ولم أجد بدأ حينئذ من تبين كل هذا — على ما قال آدم في خاتمة نقده — حتى تستقيم موازين النقد عندنا وينزجر المهاجم على العلم من غير باه . فلما تجز الأستاذ الدكتور آدم عن دفع البينة فزع إلى الماحكة والمهارة ، قطع الله الحزازات التي تأكل النفس ا

وإن قال آدم ( وهو على كل قول قدير ) : إن له أن ينكر رأياً دونه فيستبدل به ضده ، بعد مضي أربعة أشهر (والحر في مصر شديد ، يبس كل شيء ) ، قلت ما دمت تناظر في العلم كأنك تداور في السياسة على الطريقة الحديثة ، فخذ شهادة أخرى ممن يجبل ويعتد به من « أهلك » ، وهي رسالة بالربية بعث بها إلى الأستاذ كراتشكوفسكي ، وقد اطلع عليها صاحب مجلة الرسالة ورئيس تحرير المقطف : « سيدى العزيز الفاضل . سلاماً واحتراماً وشكراً لكم على إرسال كتابكم الجديد «مباحث عربية» وقد قرأته في هذه الأيام أيام العطلة المدرسية ، واتفقت منه كثيراً . لا ينجف عليكم أن في قراءته بعض صعوبة على من لم يتعود طريقاً علمياً صرفاً في البحث والاستقراء ومع ذلك في الكتاب درس مهم وخطوة جديدة في سبيل ترقية العلم العربى الحديث ، عسى أن ينتفع بها أبناء العربية في كل أقطارها . حتى بدعة الرموز ، الرموز الاختزالية رأيتها في مكانها وهي بدعة مستحسنة ، ولا يتمر إدراكها واستعمالها على كل من يتمرن فيها دنيقتين . وفي الإجمال قد خدمتم العلم والآداب بهذا الكتاب الجديد خدمة تذكروا وتشكروا ودمتم على مساعيكم الحميدة والنجاح حليفكم وذوو العقول السليمة في الشرق والغرب أصدقاؤكم . أغناطيوس كراتشكوفسكي ، الروسى » ا هـ — ألا حسي صداقة « العقول السليمة » ا

وبعد فهذه كلمة ثانية ، أرسلها مكرهاً ، ولكنها رطاية العلم الحق وإقامة النقد الصحيح ولن أعود إلى مثابيع إسماعيل أحمد آدم ، فإن قلمي لشغول عن مباحكته بما هو أجل شأنًا وأعم نقماً . ب . ف .

(أى التمريف) فجاءت السفنة مبتورة ، ولم يفتن آدم إلى وجوب تذكيرها حتى ترد صيغة الإطلاق . ولو كان أسند كل هذا إلى كان خرج من ظنة السطو . . إلا أنها الوسوسات ، لطف الله بنا — وأما نقد آدم عن هوئى مبيئت في النفس فواضح في عناده عند الكلام على مسلمى فنلندة . وكان قد اجتلب النقد اجتلاباً من قبل ثم عاد فذهب في اللجاج ، على ما قدمت ، لأنه — هو المتخرج في موسكو بعد سنة ١٩١٨ — يريد أن يجعلنا نرتاب في أن نقرأ من الناس بل من المسلمين بخطر لهم أن يقرأوا من الثورة البلشفية ( أو « الثورة الاشتراكية الكبرى » كما يسميها هو : الرسالة ٣١١ ص ١٢٣٠ ) .

وأوضح من هذا أن آدم خرج من نقده الثاني بهذه النتيجة : « ظهرت عقلية الدكتور بشر الشككية بأجلى مظاهرها وتبين لنا كيف أن هذه الشككية مسافة إلى أخطاء في البحث لا يقع فيها من له دراية بسيطة بالبحث اللغوى للمستقيم (بني نفسه طبعاً) . والواقع أن بحث الدكتور بشر في الروءة ضعيف لا يثبت على نقد ولا يمكن أن يواجه مراجعة علمية صحيحة »  
وهنا لا أحب أن أذكر آدم بأن مبحث الروءة نشر من قبل بالفرنسية والإنجليزية والألمانية في دائرة المعارف الإسلامية الخارجة في هولندة ولم يظفر بمثله هذا الحكم . ثم لا أحب أن أستشهد بأراء من كتب عندنا في « مباحث عربية » مثل العلامة الأب الكرملى ، والأديب المترسل الأستاذ المازنى ، ومدرسين من الجامعة المصرية وغيرهم . فلربما قال آدم (وهو على كل قول قدير) : إن هؤلاء وأشباههم لا « دراية لهم بالبحث اللغوى للمستقيم » . ثم لا أحب أن أظلمه على ما قاله المستشرق بروكلى في الجزء الثالث من تكملة تاريخ الآداب العربية ؛ فلربما قال : إن بروكلى لا يستطيع « مراجعة علمية صحيحة » . بل ليأذن لي الأستاذ الدكتور آدم أن أدون اليوم حرفاً لحرف ما قاله في نقده الأول لكتابى :

« وفي هذا المبحث (مبحث الروءة) يبرز الباحث (يعنيى «مع الأسف » ) رجلاً مدققاً عرض للموضوع في إحاطة بحجية » ( الرسالة ٣١٢ ص ١٢٧٤ )

ثم هذه خاتمة نقده الأول : « هذا هو كتاب مباحث عربية . وهو كتاب فريد في موضوعه وفي نهج بحثه وفي منجى تحقيقه ، يدل على أن صاحبه صاحب ذهنية علمية منزنة ، يتصدى للموضوعات على أساس من أسس الأصول والفروع مع دراية تامة بأساليب